خريدة لبنان

(للاب هنري لامنس اليسوعي)

(تابع لما قبل)

١٠

في ذات صباح من أيام تموز — وقد مضى نحو الشهر على ما سبق ذكره — كانت العربة العمومية المعروفة بالديليجنس تصعد كالعادة فوق ربى لبنان من بيروت الى دمشق. فوقفت عند خان الشيخ محمود وبينما خرج منها شابّان في مقتبل العمر عليهما شارات الحظ وملامح السرور وفي يمين كل منهما عصا ضخمة اعدّاها ليستعينا بها على السير في الجبل

فوقفا برهةً يسرّحان الطرف في تلك الربوع التي كستها الغزالة عند بزوغها حلّة الانوار ونظم لها الندى من اللآلئ عقودًا ولبثا ينفثان من صدرهما هواء المدينة ويستنشقان بتنعُّم نسيم الجبال البليل فتنتعش منهما الارواح والابدان

ثمّ ثنى كلٌّ طرفَيْ بنطلونه فوق حذاء متين الصُّنع مهيّأ للمشي في الوعر وسارا بهمّة في تلك الطريق التي تراكم فيها التراب. وهما يتداولان الحديث بجماسة ولا يشكّ من يسمعهما انهما من ارباب القلم ورجال الادب

وما زالا يمشيان بنشاط ينعشهما نسيم الصباح ويدفعهما التحمّس واذا باصغر الشابّين توقف عن السير وصاح برفيقه: ألا أنصت يا هذا

وكان طرق مسامعهُ نغمات الزمّارات والدفوف صادرة من الوادي يتجلّاها حينًا بعد حين طلقات البنادق

فقال لهُ رفيقه: زهل من عجب فهولاء العَرَبُون اطاعوا اليوم داعية الافراح. ويحق لهم ان يتناسوا حصّة اكدار الحياة

فاجاب قائلًا: لا انكر ذلك. على اني اودّ لو اعرف الداعي الى مثل هذه المظاهرات مذ لاح الصباح. فانني راجعتُ البارحة قبل مغادرتنا بيروت تقويم السنة فلم اجد لعيدٍ ذكرًا في هذا الاسبوع وقد مضى نحو العشرة ايّام على عيد مار الياس. فيا تُرى ماذا جرى. وهنا ادّى السير بالشابّين الى خان ابي القريّة الذي عرّفناهُ قبلًا ولم يكونا يجهلانهِ. فقال اكبرهما:

لقد مشينا نحو الساعتين فبلغ منى العطش مبلغًا . هيا بنا نروي الغليل في هذا الدكان ونأخذ لنا من الراحة نصيبًا ونغتنم الفرصة لنسأل الدكاني عن الخبر اليقين

فما ولجا الدكان الا قهقها ضحكًا فلما شاهدا صاحبنا الدكاني يخطر في ملابس العيد فيسحب على الارض ذيل سروال لعب الهواء بثنائه فنفخه كالقارع . وكان لابسًا صدرية من المخمل الاحمر مزركشة بالحرير وفوقها زنار عريض كثير الالوان

فقابل ضيفيه بابتسام الفرز . ولم يبادر الى خدمتهما بل بقي يتعثر باذياله . وقد لاحت عليه علائم السأمة والكدر فصاح : مَلَكة . ملكة . عجلي . فاني اسمع صوت الدفّ . يا لله . انّ العيد سيفوتني بسبب هذه المرأة

فبادرت ملكة تحمل سلّة من الزهور . وما كان اجملها في خمارها الازرق البسيط وثوبها الورديّ المتّسع ونطاقها الحرير الاسود لا يشين صورتها قيمة كبيرة ولا يخفي ساعدَيها أردان عظيمة منتفخة كالتي تألفها نساء اليوم

فلم يكن كلمح البصر الّا قدّمت مَلَكة للشابّين شرابًا مبرّدًا ثم مضت لتنظر آخر نظرة في ملبوسها

فعيل صبر الدكاني وصرخ : ملكة . وحياة أبي اذا لم تحضري تركتكِ وسرتُ وحدي

وبينما الشابان يرويان الغليل ويتبسّمان مما يسمعان ويريان اذ لاحت منهما إلتفاتة فابصرا على الجدار صورة تمثيلين عليها من الالوان اصناف وهي اغرب الهيئات

فصاح احدهما بالدكاني سائلًا : ألا يرّبك يا هذا ما حداك الى تعليق الصورة في الجدار على تلك الحالة . أوَخطر لك ان تُبقيها ابدَ الدهر

فاجاب الدّكاني وهو يتبسّم ابتسامة معنويّة : نعم نعم . فليضحك من شاء فهي مبدأ ثروتي وبسببها صرتُ ارجح سنويًا ثلاثين ليرة

١١

وعندئذٍ سُمع طلقات بنادق كثيرة دفعة واحدة اوشكت ان تُطير الكأس من ايدي الشابّين فصاح الدكاني مجنّنًا : يا لله قد دارت افراح العرس . ويل هذه المرأة لا شكّ انها تضيّع عليّ الوقت وتحرمني من العرس

فسأله اكبر الشابّين . يرّبك يا عمّ الا أخبرتنا بايّ عيد تحتفلون اليوم وما الداعي لمثل هذه الحركة في ضيعتكم

فاجاب الدكاني: داعٍ عظيم مهمّ فوق العادة. ولا شكّ ان جرائد بيروت تذكره

— هل زاركم الطران ؟ فاني اسمع جرس الكنيسة يقرع منذ ساعة

— ما حزرتَ

— أقدم عليكم القنصل ؟

— بل افضل من القنصل

— فاذن متصرّف لبنان. على انهُ منذ اسبوع يتجوّل في شمالي لبنان بجهات الارز ولا اخالهُ ألا باقيًا هناك

— انت بعيد

— فلم يبقَ الّا والي سوريّة. لكن بلغنا انهُ اليوم في نواحي طرابلس. ألا بحقي يا عمّ أفدنا عن الحقيقة وخلّصنا

— الحكاية من اغرب ما يكون ..ما سمع احد بمثلها. فلو كنتم تعرفونها انتم الذين تؤلفون الكتب لأغنتكم عن اختلاق القصص. وهذه الصورة لها علاقة شديدة مع قصّة انيسة الضريرة

فقال اصغر الشابّين منذهلًا: انيسة الضريرة ؟

— أنعم بهذه القصّة مُلحقًا لرواية وردة المغرب

فصاح رفيقه باسمًا: على رسلك ايها الشاعر ولا تستقلّ بالقصّة وحدك. فالمثل يقول: كونوا اخوة واقتسموا قسمة الحقّ

— لا نتخاصمنّ على القصّة قبل ان نسمعها. قال ذلك والتفت الى الدكاني وتوسّل اليهِ قائلًا: بحياتي عنك يا عمّ تروي لنا هذه البادرة ونحن نعدك بان نقدّم لك نسخة منها مطبوعة

فصاح الدكاني: ذلك مستحيل في هذه الساعة. فاني مستعجل... وها امرأتي وصلت والحمد لله. تعالا معنا الى الضيعة وانا اخبركما على الطريق بكل ما جرى واذكر لكما هذه الحكاية

وكانت المرأة قد دخلت تخطر في ثوب العيد. فاندفع الدكاني يجري وقد جذب معهُ الشابّين واخذ يروي لهما مع التفاصيل قصة حنّا الطويل وانيسة الضريرة وعما يعيرانهِ اذنًا صاغية وقلبًا واعيًا. والمرأة تتبعهم ولا تغفل ذكر نبذة او ابداء ملاحظة في اثناء الحديث

« فاعلموا ان حنّا غنطوس بعد موت والديه لم يكن لهُ ملجأ فانتقل الى بيروت طلباً للرزق ولمّا ضاقت عليهِ المذاهب دخل في مركب انكليزيّة بصفة وقّـاد وهكذا مرَّ في اسفاره بكل موانئ البحر المتوسط وبلاد الانكليز . ففي ذات مساء كانت هذه المركب مارّة بمضيق جبل طارق فاصطدمت بمركب اخرى فانفلقت ولم تلبث ان ابتلعتها اللجج قبل ان تتمكّن من الوصول اليها المراكب التي بادرت الى نجدتها . ولم ينجُ الّا بعض البحارة

« وبعد ايّام قلائل انتشر الخبر في كل الاصقاع وطار الى جبال لبنان وعلم اهل ضيعتنا بالمصاب واعتقدوا جميعهم الّا انيسة بموت حنّا الطويل غرقاً . وفي الواقع انهُ لم يمت بل كان في عداد من سلم من البحّارة . وعاد الى اسفاره فقادتهُ الى رأس الرجاء الصالح . وكنتُ لا تسمع في تلك الايام الّا من يحدث باخبار الترانسفال ومناجم الذهب والالماس فيهِ . فخطر لصاحبنا ان يقصد تلك الوجهة طمعاً في المكسب

ففي بادئ الامر قاسى من الاكدار والاهوال ما لا يوصف لكنَّ الايّام كانت قد حنّكتهُ وشدّدت عزيمتهُ وزادتهُ خبرةً في الحدادة وعلم الحيَـل التي يسميها الفرنج ميكانيك كما سمعتها مراراً من السيّاح الذين يزورون هذه البلاد . فاشتغل عند قسيسة البويرس وزاول مهنة تصليح الاسلحة وادوات الفلاحة . حتّى ادّت بهِ الاحوال الى مدينة اخبرنا عنها وقد فات اسمها عن بالي فعرض خدماتهِ على شركة هناك تشتغل باستخراج الذهب والالماس وهي من اعظم الشركات فقبلتهُ . والعبيد اهل تلك البلاد لا حقَّ لهم على ما يظهر بامتلاك الاراضي ولا يسوغ لهم الّا الاشتغال في المناجم بصفة فعَلة ولا يقبضون اجرتهم ذهباً . وكل وكلاء الاشغال يجب ان يكونوا من البيض ولاسيما الناظرين في المناجم لانَّ العبيد الفعلة يسعون جهدهم في اخفاء شذرات الذهب والالماس

ولمّا وصل حنّا الى تلك البلاد كان عدد البيض دون القليل فلذا قبلتهُ الشركة مع الشكر ودفعت لهُ راتباً مهمّاً وعلاوةً على ذلك كانت تعطيه خُمس الالماس المهرّب الذي يكتشف عليهِ . ولما كان قنوعاً في معيشتهِ صادقاً في خدمتهِ مجتهداً في اعمالهِ لم يلبث ان جمع كميّة من المال وافرة وقد كان حاصلاً على ثقة واعتبار مخدوميهِ وحبّ العبيد المشتغلين تحت امرتهِ . وليس من طبعهم حب البيض

ولمّا ثار العبيد كان هو من النزر القليل الذين سلموا وبقي بيتهُ سالماً محفوظاً على

حين ان منازل مديري الاشغال والمستخدمين أحرقها الثائرون. ولما هدأت الخواطر وكان عنده رأس مالٍ مهمّ عزم على الشغل لحسابه فاشترى قرب المدينة اراضي مهجورة وبعد الكدّ ومعاناة الاتعاب اسعده الحظ بالاكتشاف على معادن ذهبية

ولم تمضِ سنوات قليلة حتى اصبح من ارباب الملايين وكانت نفسهُ لا تزال تحن الى بلاده فترك اشغاله وجمع ما عندهُ من المال وقفل راجعاً الى سوريَّة. وقد مضى عليهِ شهر كامل في ضيعتنا هذه مستمتعاً برأسهِ وفيها جمعتهُ الأيام بخطيته انيسة الضريرة التي صبرت على الفراق اكثر من عشرين سنة. اما باقي القصة فستعلمانهِ اليوم...»

١٢

كان الدكاني يسرد على الشابين تلك الاخبار مع التفاصيل وهو يلهث تعباً وما أتى على آخرها حتى أعياه الجهد. لكنّ رفيقيهِ لم يقنعا بما ذكر بل طمحت ابصارهما الى غير ذلك من مُلحقات الحديث. فسألهُ احدهما قائلاً: على انك يا عمّ نسيت ان تخبرنا عن العلاقة بين قصَّتك وصورة نبوليون المتعلقة على جدار دكانك

فاجاب قائلاً: الحق معك. فاعلما ان حنّا الطويل دفع لي ثمنها كمية من الدنانير ولا يزال كما اخبرتكما يدفع لي ثلاثين ليرة في السنة على شرط اني أُبقيها كما كانت فيما مضى قبل سفره وكما رأيتماها في محلّها. فانهُ تقرّ عينهُ برؤيتها وتطيب نفسهُ بذكر الايام السالفة

ولا يخطرنّ ببالكما انهُ اكتفى بما احسن اليَّ بل عمّ فضله الجميع. وليس حنّا الطويل اوّل مسافر عاد الى بلاده. فان كثيرين بعد ان جمعوا المال رجعوا الى ضيعتهم ولكن لم يهتمّوا بغير نفسهم فاشتروا الاراضي وبنوا البيوت الفاخرة اما حنّا فانهُ فعل ما لا تنساه على طول الزمان. لا شكّ انكما رأيتما اساس بناء عند مدخل الضيعة فهذا مستشفى بناه للمرضى ومأوى للشيوخ العجزة. وهو عازم على تشييد مدرسة للصبيان واخرى للبنات

ومع ما هو عليهِ من الغنى الوافر لا تراه يتعجرف او يزدري باحد بل يتكلّم مع الصغير والفقير بكل لطف ويسلّم على الجميع بكل رقّة. وخلافاً لكل الذين يرجعون من البلاد لم يأخذ عن الاوربيين الا الفوائد الحسنة وهو يقوم خير قيام بواجباتهِ الدينية ويحضر الذبيحة الالهية كلّ احد وعيد ويصلّي بحرارة كأنهُ لم يخرج من ضيعتنا

وبعد ان اهتمّ بكلّ الناس افتكر في نفسهِ. فاشترى بيت مصيف كان بناه احد

تجار بيروت وسينتقل اليهِ مع انيسة وعائلة الحانك سركيس التي تبنّى كلٌّ ابنائها . ولم يغفل عن الحفّار فارس بل اعطاه مالاً كثيرًا

واليوم يُنعقد الاكليل على انيسة . وهذا عيد عظيم لاهل الضيعة . والبرهان على ذلك انهم سيذبحون عشرة خراف وفي هذا الصباح سيحضر حنّا قدّاسًا احتفاليًّا ليشكر الله على نعمهِ الجزيلة نحوهُ

وفي اثناء هذا الكلام وصل الشابّان الى القرية ولم يأتهِ بعد حديث الدكّانيّ غير انهما شُغلا عن سماع الختام بما وقعت عليهِ أعينهما

فكانت القرية قد برزت باجلى مظاهر الزينة وكانت ابواب المنازل والنوافذ كلها مزدانة بالزهور وبالخضرة وعلى البعض منها أشعار رقيقة تتضمّن الطف التواريخ . وكانت تخفق في كل جهة الاعلام المختلفة الالوان

وعلى باب حنّا الطويل قد كتب بالزهور اسم العروسين على اجمل منوال

اما عن ازدحام الناس فحدّث ولا حرج . فكانت جماهير القرويّين قد بادرت من جميع الضياع والمزارع المجاورة ليحضروا مثل هذا العيد النادر المثيل بينهم (ستأتي البقيّة)

شتّى

معنى اسم البرمكيّ

كثيرًا ما بحثتُ عن معنى هذا الاسم في اللغة العربية وفي كتب المؤرخين من العرب فلم اعثر على ما اشفي بهِ الغلّة الى ان وقع بيدي كتاب فارسيّ ذكر فيهِ معنى هذا الاسم فقال ما محصّلهُ : ان نسب جعفر الذي هو ابو خالد البرمكي يتّصل بملوك فارس وكان في اوائل أمرهِ مجوسيًّا يعبد النار في نوبهار بلخ . فلمّا اراد التديُّن بدين الاسلام اخذ معهُ خدمهُ وحشمهُ وحامّتهُ (عائلتهُ) وتوجّه بهم الى دمشق وكانت يومئذٍ دار ملك بني أمية . وذكر في جامع التواريخ ان وصول جعفر الى دمشق كان في عهد عبد الملك بن مروان وقال جماعة من المؤرخين ان وصولهُ اليها كان في ايام سليمان بن عبد الملك . ولمّا رأينا ان الرواية الثانية اصحّ اقرب لم نعتمد على القول الاول . ولمّا قدم جعفر امام سليمان بن عبد الملك تغيّر لون الخليفة وامر باخراجهِ من المجلس فتعجّب الحاضرون من صدور ذلك الحكم فقال لهم